خطبة صلاة الجمعة 10/ 12/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الصبر عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

هذه الخطبة العاشرة في سلسلة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلّى بها).

وعنوان خطبة اليوم:

الصّبر عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى به.

أيها الإخوة:

سبق أنّ الخلُق هو اسم لصورة الإنسان الباطنة، كما أن الخِلْقة اسم لصورته الظاهرة. (لسان العرب).

والأخلاق تكون فطرية وتكون مكتسبة، فمن فطره الله على خلق حسن فليحمد الله ومن لم يجده في نفسه فليتدرب على اكتسابه، وهذا الواجب العملي الأهم على مستمع هذه السلسلة.

أيها الإخوة:

حبس النّفس على ما تكره مما يطلبه الشّرع والعقل هو **الصبر**.

ولن تجد ناجحاً في علمه أو في ماله أو في جاهه أو في صلاحه إلا وقد حبس نفسه مراراً وتكراراً على ما تكره مما يطلبه الشرع والعقل.

فالمتفوِّق من طلاب الجامعة لو لم يمنع نفسه مراراً وتكراراً من اللّهو وإضاعة الأوقات، ومن كثرة النوم والاستغراق في الملذّات لما كان متفوِّقاً في المتفوِّقين.

والناجح من التُّجار لو لم يمنع نفسه مراراً وتكراراً من الخوف والتردد ومن الراحة والتكاسُل عن العمل لما كان ناجحاً في الناجحين.

والمُحنَّك من السياسيين لو لم يمنع نفسه مراراً وتكراراً من سرعة القول وردّات الفعل، ومن الميل للبطش والانتقام لما كان مُحنَّكاً في المُحنَّكين.

والموَفَّق من الصالحين لو لم يمنع نفسه مراراً وتكراراً من مخالفة أوامر الشرع ونواهيه، ومن كثرة الطعام والكلام والمنام؛ لما كان صالحاً في الصالحين.

فالصبر: هو حبس النفس على ما تكره مما يطلبه الشرع والعقل، وهو مادة التوفيق في شؤون الدنيا والآخرة.

وإذا كان حديث اليوم عن الصبر عند النبي صلى الله عليه وسلم وكيف نتحلى به، فإليكم هذه المواقف من السُنة المطهرة..

1-أخرج الإمام مسلم بسنده أنّ عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيتُ من قومكِ وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبة** -هو اليوم الذي وقف صلى الله عليه وسلم عند جمرة العقبة التي بمنى داعياً الناس إلى الإسلام فما أجابوه وآذوه-، **إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقَرْنِ الثعالب** -أي من شدة الهم والحزن-،

فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: "إن الله عز وجل قد سمع قول قومِك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم"، قال: فناداني مَلَك الجبال وسلّم عَلَيّ، ثم قال: "يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلَك الجبال وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئتَ، إن شئتَ أن أُطبِق عليهم الأَخشبَين"، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

فهذه صورة من صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدعوة إلى الله وتحمّل أذى قومه في سبيلها.

2- وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله، إنك تُوعَك وعكاً شديداً، قال: **«أجل، إني أُوعَك كما يُوعَك رجلان منكم»**، قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال: **«أجل، ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطّ الله به سيئاته كما تحطّ الشجرةُ ورقَها»**.

فهذه صورة من صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على البلاء والأمراض.

3- وأخرج الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (اشتكى ابن لأبي طلحة، فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنّه قد مات هيّأت شيئاً ونَحَّتْه في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأتْ نفسُه، وأرجو أن يكون قد استراح، فظنّ أبو طلحة أنّها صادقةٌ، قال: فباتَ، قال: فلمّا أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج: أعلمته أنّه قد مات، فصلّى مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخبر النبيَ صلى الله عليه وسلم بما كان منهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لعلّه أن يباركَ لهما في ليلتهما»**، قال سفيان بن عُيَيْنة: فقال رجل من الأنصار: فرأيتُ لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن)، وفي لفظ: (أنها قالت لأهلها: لا تُحدِّثوا أبا طلحة بابنه، حتى أكون أنا أحدّثه، قال: فجاء، فقرّبت إليه عشاء، فأكل وشرب، قال: ثم تصنّعت له أحسن ما كانت تَصَنَّع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أنّ قوماً أعاروا عاريتَهم أهل بيت، فطلبوا عاريتَهم، أَلَهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب، وقال: تركتيني حتى تلطّختُ، ثم أخبرتيني بابني، فانطلق حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«بارك الله لكما في ليلتكما»**).

فهاهنا إقرارُ النبي صلى الله عليه وسلم لصبر المرأة على فقد ولدها، ودعاؤُه للوالدين، وإجابةُ دعوته.

فالصبر خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم، وهو معروف به، والمتوقع أن يكون الصبر وصفَك، وأن تكون معروفاً به.

اتصل بي ذات يوم على برنامج إذاعي رجل ستّيني -كما يظهر من صوته- ليقول عن نفسه: إنّه زوجٌ صعب المِراس غليظ الطباع سيء الأخلاق، ويقول: إنّ زوجتَه صبرت عليه ثلاثين سنة حتى قلَبْتُه إلى رجلٍ ذي خُلُق حسن وطبع سهل، وإنّه لا يعمل اليوم عملاً خَيِّراً إلا وهو حسنة من حسنات زوجته الصابرة.

على حين جاءتني فتاة عِشرينيّة لتقول: إنّ صبرَها على زوجها قد نفد، وقد تحمَّلته بما فيه الكفاية، وتريد مُخالعته، علماً أنّه لم يمضِ على زواجهما إلا ستةُ أشهر!

الصبر هو حبس النفس على ما تكره مما يطلبه الشرع والعقل، ومن صبر ظَفِر.

ذكرت كتب التّراجم عن سليمان بن يسار أنّه كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه يوماً امرأة فسألتْه نفسَه فامتنع عليها، فقالت له: ادنُ، فغالَب نفسَه وهواه وخرج هارباً عن منزله وتركها فيه.

قال سليمان: في تلك الليلة رأيتُ نبيَ الله يوسُفَ عليه السلام فيما يرى النائم، فقلت له: أنتَ نبي الله يوسف الذي راودته امرأة العزيز عن نفسه فاستعصم؟!، فقال: نعم، وأنتَ سليمان بن يسار الذي راودتكَ اليومَ المرأةُ عن نفسك فامتنعتَ منها!

وقد ترجموا لسليمان بن يسار في كتب الأولياء وطبقاتهم لصبره عن المعصية ولاجتهاده في العلم والعبادة.

الصبر هو حبس النفس على ما تكره مما يطلبه الشرع والعقل، ومن صبر ظَفِر.

حدّثني واحد من حُفّاظ القرآن الكريم يسكن في منطقة القصور بدمشق، أنه صلّى الفجر ستّ سنوات في مسجد الشيخ محيي الدين بالصالحية، ليُسمِّع حصتَه من القرآن للشيخ محمّد سكر رحمه الله، إلى أن نال الإجازة، صابراً على بُعد المسافة وشدّة ضبط الشيخ.

وكان يمضي للمسجد ماشياً لقِلّة ذات يده، وكم من مرة تَبَحتْه الكلاب، وكم من مرة سقط في حفرة ماء في ظلمة الطريق.

وها هو اليوم صار مشرفَ معاهد القرآن الكريم في منطقته وما حولها.

الصبر هو حبس النفس على ما تكره مما يطلبه الشرع والعقل، ومن صبر ظَفِر.

أيها الإخوة:

في ختام هذه الخطبة إليكم ثلاثةَ أمور تعين المرء على الصبر، سواء على صبره على الطاعة أو على صبره عن المعصية أو على صبره على البلاء:

1- **تَذَكُّرُ حُسن جزاء الصبر**: فقد اتفقت كلمة العقلاء على أنّ من رافَقَ الراحة فارَقَ الراحة، وعلى قدر التّعب تكون الرُّتَب، وإنّما يُوفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب، وبشِّر الصابرين.

2- **انتظار روحِ الفرج**: فإنّ الكرب إلى زوال، وإنّ الضيق إلى اضمحلال، وإنّ الفرج قريب النَّوال، وأفضلُ العبادة انتظارُ الفرج، ولن يغلبَ عُسْر يُسرَين، وإنّ في انتظار روح الفرج عوناً على الصبر والثبات.

3- **التأسّي بأهل الصبر والثبات**، من السّابقين والحاضرين وصحبتُهم وسماعُ أخبارهم.

أيها الإخوة:

أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم فإنه من صلّى عليه صلّى عليه ومن سلّم عليه سلّم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثَه صلّى الله عليه وسلم وأخلاقَه، وسنتَه وسيرتَه، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنتُه ماثلةً بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين